حين تصمت الشفاه وتتكلم الأفكار

ذات أثر

نبذة الكاتب

امرأةٌ لا تُجيد البوح ، لذا تعلمت كيف تُحوّل ضجيج أفكارها إلى غرزٍ متقنة على القماش، وحروفٍ صادقة على الورق. هي أمة تسعى لثبات قلبها ،و أُمٌّ تصارع فوضى الأيام بالحب، وزوجةٌ تبحث عن السكينة في تفاصيل المودة، وإنسانةٌ آمنت أن أصدق أثرٍ يتركه المرء هو ذاك الذي ينمو بهدوء في قلوب من حوله.
'ذات أثر' ليست مجرد كاتبة؛ بل هي رفيقةُ كل روحٍ متعبة، تهمس لكِ عبر هذا الكتاب: لست وحدكِ في هذا الضجيج.

الإهداء

إلى نفسي..
وإلى كل من اتهموه بالتعقيد لأن صمته طال.. إلى الذين يملكون باطناً لا يشبه ظاهرهم الهادئ؛ لمن يبدو ساكناً وفي أعماقه "محيرقة" مشتعلة تكاد تنفجر، وللذين ترقص الكلمات في عقولهم ولا تجد مخرجاً إلاّ على الورق.. هذا الكتاب هو صوتكم.

✨🪐

المقدمة:

فلسفة الصمت

يظنونني غائبة، بينما أنا حاضرة أكثر من اللازم. في مجالسهم، أوزع ابتساماتي كإشارات طمأنة بأنني "معهم"، لكن الحقيقة أنني في عالم آخر. داخل رأسي، هناك "ضجيج" لا يسمعه أحد.

أفكاري لا تمشي ببطء، بل ترقص، تتشابك، وتفور غلياناً كلما زادت فوضى أصواتهم من حولي.
حين يصمت لساني، ليس لأنني لا أملك ما أقول، بل لأن "المحيرقة" التي بداخلي تخشى أن تحرق هدوءهم الخارجي بكلمة لم تكتمل.
أنا لا أواجه باللسان، لأن الكتابة هي ميداني.. هناك فقط، يمكن لأفكاري أن تمضي دون أن يقطع أحدٌ طريقها.

فلقد ضقت ذرعاً ممن يقبل في الناس ما لا يقبله في نفسه؛ يهين ولا يقبل الإهانة، يكسر الخواطر ولا يرضى عمن يسيء إليه، يُخجل غيره ويردّ مسألته، ويُسيل دمعته بمزاحه الذي هو أثقل من وزن جسمه، ولو فعلتَ معه الأمر ذاته، لرمقك بنظرة ازدراء وجعل منك ناقص عقل ودين!

ضقت ذرعاً بمن يدافع عن أخطائه بأخطاء أخرى، ويحاول أن يبدو مثالياً على الدوام، والأدهى من ذلك أنه لا يعترف بهفواته أبداً.

ضقت ذرعاً بصمتي الدائم الذي استحال ضجيجاً لا يطاق، ليس في عقلي فحسب، بل في كياني كله؛ صمتٌ جعل مني كتلة مضطربة في أغلب الأحيان.

سبق وأن أفرغتُ بعض ذلك الضجيج على الورق، فصار أضعاف ما كان عليه؛ فما إن تنتهي قصة، حتى تبدأ أخرى.

لذا قررتُ أن أمسك إبرتي، لا لأخيط جراحهم، بل لأطرز كرامتي فوق ورقٍ لا ينسى

سأكتب كأم، كزوجة، كرفيقة، كأخت.. كإنسان. سأكتب لأهدأ، فكل خطوة أخطوها لنيل الهدوء هي "انتصار" كبير لروحي ولأطفالي.

✨🪐

1. أفي الله شَك؟

بدأت حكايتي وأنا أرتجف تأثراً بآيةٍ هزت أركان روحي المتعبة:
﴿ ۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾

في تلك اللحظة، شعرتُ بنداء الفطرة يناديني من بعيد، لكنني وجدتُ نفسي عالقةً في "المنتصف"؛ بين صورتين لا تشبه إحداهما الأخرى.

صورة "راء" التي يراها الناس؛ تلك المرأة الطيبة، الهادئة، والمتسامحة التي لا ترُدُّ سائلاً. وصورتي التي لا يعرفها إلا الله؛ المشتتة في صلاتها كأنها تطارد السراب، والمنفجرة غضباً مع أطفالها الثلاثة، والباكية خلف الأبواب الموصدة.

يا رب.. الناس ترى الظاهر، وأنت وحدك ترى "الندوب" التي خلفتها القسوة والجروح اللفظية في أعماقي. ترى لساني الذي يزلُّ غضباً كأنه يفرغ "المحيرقة" في وجوه الأبرياء، وقلبي الذي يهرب من الصلاة تشتتاً لأن ضجيج العقل لا يصمت.

لكنني اليوم، أمام عظمتك، عظمة "فاطر السماوات"، قررتُ مواجهة الحقيقة: نوبات غضبي ليست "أنا"، بل هي صرخة ألمٍ من ضغوطٍ فاقت طاقتي البشرية.

سأرمم بيتي بـ "جهاد الصمت الحكيم"، وسأجعل من الفجر خلوةً مقدسة أرمي فيها أثقالي، فأنت "فاطر" سماوات روحي، والقادر على إحيائها من جديد مهما تراكم فوقها من رماد.

2. نور البصيرة والغربة

وسط هذا الشتات، كنتُ أراقبه من النافذة؛ خيالاً يعبر الطريق المظلم قاصداً صلاة الفجر. طريقٌ يراه الناس موحشاً، لكنه في الحقيقة ممرٌ يفيض بالنور. رأيته يمر بجاره "الكفيف" ليترافقا إلى المسجد، فاهتز قلبي تأدباً وحياءً.

يا رب.. قلبي يؤنبني حتى على لفظ "كفيف"، فهو الذي يبصر بقلبه طريق الملكوت، بينما نحن المبصرون نتخبط في عتمة الغفلة. هو الذي يرى النور في السجدة، وأنا التي فضلتُ أحياناً النوم، متناسيةً أن "البصيرة" لا تُشترى بالعيون، بل تُوهب للقلوب الساجدة. فاللهم ارزقنا بصيرةً لا تضل، ونوراً لا ينطفئ.

إن "غربة الدين" التي نعيشها اليوم، وما نراه في أرضنا من انكسار، ما هو إلا مرآةٌ لضعفنا حين استبدلنا الذي هو أدنى بالذي هو خير. المخرج لن يكون بالصراخ، بل بـ "ثورة تربوية" صامتة تبدأ من داخل كل بيت؛ حيث تُبنى العقيدة كحائط صدٍ منيع في قلوب الصغار.

كن أنت ذاك "الغريب" الذي إذا رآه الناس ذكروا الله، فبمثلك يرفع الله البلاء، وبسكينتك يعود التوازن لهذا الكون المضطرب

الفصل الثاني: جذورُ الارتواء (عن المبتدأ والخبر.. أمي وأبي)

1. السقيا الأولى: أبعد من حدود المقاعد

يقولون إن التعليم يبدأ من المدرسة، وأقول إن طهارتي بدأت من خطواتي الصغيرة التي ساقها أبي، ويد أمي التي كانت تشد على يدي قاصدةً بيوت الله. لم تكن الغاية حشو عقلي بالمعلومات، بل كانت عينهما على "الروح" قبل "اللوح".

كانا يحرصان على استقامة خُلقي أكثر من تفوقي الدراسي، علماني أن العلم بلا أدب كشجرة بلا ثمر. زرعا فيّ حب القرآن لا كحروف تُحفظ، بل كمنهجٍ يُعاش، فصارت تلك المساجد هي "المحراب" الأول الذي تعلمتُ فيه كيف أُفرغ ضجيجي بالصلاة.

✨🪐

2. مدرسة الصبر الصامت

أبي وأمي.. هما الوفاء في زمن الزيف، والتضحية التي لا تنتظر ثمنًا. رأيتهما يواجهان المحن، يبتلعان غصص الابتلاءات والمرض بصبرٍ جميل، ويمضيان في طريق الحياة كجبلين لا تهزهما الريح. هما "المدرسة" الحقيقية التي تعلمتُ منها كيف أكون "عموداً" لبيتي اليوم.

كلما سمعتُ عن رحيل أبٍ أو أم، انقبض قلبي غماً، وشعرتُ بضعفي الإنساني أمام فكرة الفقد؛ فكيف للغصن أن يحيا إذا جفّ نبعه؟

3. اعترافٌ بقلبِ ابنة

أعترفُ أنني لستُ تلك "البارة المثالية" التي تفي حقهما كاملاً، فتقصيري يطاردني، وعجزي عن رد الجميل يكسرني. لكنني أحملهما في عمق وجداني رمزاً للسكينة، وفي دعائي سراً وجهراً. يا رب.. هما الماء الذي سقاني لأخضرّ، والضياء الذي بدد عتمة حيرتي؛ فاغفر لهما وارحمهما كما ربياني صغيرة، واجعل ما زرعاه فيّ من خيرٍ أثراً جارياً يثقل موازينهما يوم لقاك

الفصل الثالث: نبضُ الدار (اعترافات أمّ صابرة)

1. أنا لستُ "مجرد" ربة بيت

يقولون: "هي مجرد أيام تتشابه"، ويقول قلبي: "بل هو عمر يذوب بين الجدران".

مهلاً..

ألا تعلمين أن صلاتكِ التي تسابقين فيها ضجيج الصغار هي "جهاد"؟ وأن صبركِ على الكلمة الجارحة هو "صدقة"؟ ليس العابد من انقطع في خلوته فحسب، بل العابد من جعل من تعبه احتساباً، ومن بيته قبلة للرحمة.

أنتِ صانعة الإنسان، وحارسة الأمان، ومأوى الأرواح.

✨🪐

2. نورٌ خلف الغبار

يقولون "بيتكِ فوضى" ولا يرون الحديقة التي أحميها في قلبي.
يقولون "كسولة" وهم لا يعلمون أنني أصارع الجاذبية كل صباح لأقف.
أنا التي عبرتُ من مقاعد الدراسة إلى مهاد الطفولة بلمحة بصر
لم أملك وقتاً لأرتب أفكاري، فكيف أرتبُ زوايا البيتِ والصرخاتُ لا تهدأ؟
ثلاث سنوات، ثلاث ولادات، ثلاث أرواح سكنت أحشائي وأخذت من دمي وعافيتي ومن سلامي الداخلي الذي انحنى تحت وطأة "الواجب".
يقارنونني بمن سبقنني، وكأن الأمومة سباق للمكنسة والممسحة!
نسوا أنني في مرحلة "بناء بشري".
الغبار المتراكم على الرفوف هو غبار التعب على روحي، والمطبخ الفوضوي شاهد على يوم قضيته أطعم صغاري وأحتوي آلامهم.
أنا لستُ فاشلة؛
الفشل هو أن أنطفئ، وأنا أحاول أن أكون أما مطمئنة و رفيقة دربٍ لأبناء سعداء وزوجةً ودودة
الفشل هو أن ينعدم طموحي في الرسم و التطريز
الفشل هو أن أترك قلبي يقسو، وأبتعد عن طلب العلم و العيش بالقرآن
طموحي ليس ذنباً، ورغبتي في العلم ليست رفاهية
أنا روح تسعى لخالقها.. ولن تضل.

أختاه

أنتِ لستِ فاشلة: المجتمع أحياناً يقيس نجاح الأم بـ "لمعان الأرضية"، بينما الله يقيس سعيكِ بصبركِ على تربية أطفالك،و حسن تبعلك لزوجك،و سعيك لإصلاح نفسك
بيتك،أهلك،يحتاجون أما،قدوة،وحنانا،و ليس "خادمة فندقية"..!
فلا تنتظري التقدير من أحد،فالناس غالبا ما يرون النتيجة فقط،قدري نفسك و افتخري بها...

✨🪐

3.رسالة إلى "بقايا روحي": اعتذارٌ وفخر

إلى صغاري الثلاثة، إلى مَن هم "بقايا روحي" وقطعةٌ حيةٌ مني؛ أنتم الأنس الذي لا يمكنني تخيل جفاف أيامي بدونه. أحبكم حباً يجاوز حدود طاقتي، وأحملكم في قلبي قبل أن أحملكم بين ذراعيّ.

اعذروني..
فإن علا صوتي يوماً بصراخٍ غاضب، فما هو إلا "صرخة ألمٍ" وضجيجُ تعبٍ أنتم بريئون منه تماماً. لستم "حِملاً" ثقيلاً كما قد يتهيأ للبعض، بل أنتم "الأمل" الذي أستمدُّ منه وقودي للعيش.
أنتم أبطالي الصغار الذين أسعى بكل ما أوتيتُ من قوة ليبلغوا قمة النجاح في دينهم ودنياهم، وأن يرزقهم الله تمام الصحة في أبدانهم والسكينة في نفوسهم. 11

إلى "أصحاب التعليقات":

لقد حاولتم زرع "الذنب" في تربة قلبي، قلتم: "حرمتِ طفلكِ الأول من حنانكِ بقدوم إخوته"، وقلتم: "صغاركِ مساكين.. ليتكِ انتظرتِ حتى يكبروا".

لكنكم لم تدركوا أنهم رزقٌ ساقه الله لي، وأنا لستُ ممن يفرطُ في هدايا الخالق.

نعم، لا أنكر التعب ولا السهر، ولكن التعب ضريبةُ الأمومة سواء كان الطفل واحداً أو عشرة.

فلذات كبدي،السهرُ معكم عبادة، والضجيجُ بكم حياة،و الضحك معكم ارتواء

أملي الأخير:

أرجو منكم حين تشتدُّ أعوادكم وتكبرون، أن تقرأوا هذه الكلمات وتفهموا "ضجيج عقلي" الذي كان يدور حولكم دائماً. أتمنى أن تكونوا لي "السند" والذخر، وأن تدركوا أن كل لحظة تعب كانت في سبيل عيونكم "انتصاراً" لروحي.

الفصل الرابع: ميثاق الوفاء (رسائل إلى "عمود القلب")

1. الوجع والغياب.. وتفاصيلك العالقة

زوجي الغالي.. مثلما للبيت عمود، أنت عمود قلبي، وبدونك يكاد ينهار.
في غيابك، صار الوقت وحشاً ينهش صبري، أراقب العقارب وهي تمشي فوق قلبي ثقيلة، 15 يوماً في رزنامة الناس، لكنها في قلبي 15 سنة. الأكل بلا طعم، والنوم هجرني إلا حين أرتمي في "مكانك" الفارغ، أبحث عن أثرٍ منك.

أراك في كل ركن، أستنشق رائحة عطرك العالقة في ثيابك، أحتضنها كطفلة تبحث عن أمانٍ مفقود لتواسيني.
أتوق شوقاً لحكاياتك وممازحاتك التي كانت تملأ البيت حياة.
صدقني، لا أحد يملأ مكانك ولو احتواني العالم بأكمله؛ فأنت الفراغ الذي لا يمتلئ، والزحام الذي لا يهدأ في ذاكرتي.

لكنني أعلم أنه في اللحظة التي تقع فيها عيني على عينيك، سيحل صمتٌ مهيب.
ليس صمت الفراغ، بل صمت الامتلاء.
لن أحتاج لقول "اشتقت إليك"، فارتجافة يدي وهي تلمس كفك ستقول كل شيء.
سينحني "عمود قلبي" ليحتضن تعبي، وتخمد النيران لتتحول إلى دفء أمان.
في تلك اللحظة فقط.. سيهدأ ضجيج عقلي.

لستُ واهمة، ولستُ أكتب عن بطلٍ في رواية خيالية؛ فأنت لستَ مثالياً، وعندي من ألمك ما قد يكفي "عشيرة من النساء".
ذقتُ منك التجريح، وعشتُ انكسار الخاطر، ومرارة اللحظات التي قست فيها يدك و قصف فيها لسانك. لكنني، رغم تلك الندوب، أعرف معدنك الطيب، وأعلم أنني لستُ بأفضل منك، فكلنا بشرٌ يحمل عيوبه على كتفيه.

المهم يا رفيق العمر أننا "نسعى للتغيير". أنت ملاذي في هذا العالم الصغير.
يا من يفهمني من نظرة، ويحتويني بعد كل عثرة، وجدتك سندا أرمي عليه ثقل خيباتي ،فيحمله أحيانا بكل تفهم و أحيانا كثيرة يرمي به على أنه من تحسسي وليس له أهمية.
و وجدت أنه من تمام ودّي لك أن أتركك في سلامك، بعيداً عن ضجيج معاركي الصغيرة مع التفاصيل.. أنت ترى الدار آمنة، وأنا وحدي أعرف كم 'غرزة' قطعتها لأحمي هذا الأمان من نكران القريب
كما أقول لك مراراً: "أنت الداء والدواء لقلبي"..تصيبني بوجعٍ حيناً، وتداويني بحبك أحياناً أخرى. وأسأل الله أن تظل "دواءً" على الدوام، وأن تمسح الأيامُ القادمة ما كسرتهُ اللحظات العابرة، لنبني معاً بيتاً لا ينهدّ.

الفصل الخامس: وقفة عز (عن الكرامة والتغابي)

1. الذكي المتغابي

لأنني أتغاضى، وأسامح، ولا أرد بالمثل.. ظنوا أنني ساذجة وتمادوا. هم لا يعلمون أن "الذكي المتغابي" أفضل بمراحل من "غبيٍّ متذاكي"، وأن إحساني ليس ضعفاً، بل هو "تجارة مع الله".

أعترفُ اليوم أن إظهاري لعدم الفهم أحياناً كان بقرارٍ مني، لكي لا ينزل مستواي إلى قاعٍ يصعب الخروج منه. كنتُ أرى السهام وهي تنطلق نحو قلبي، فأبتسمُ وكأنني لم أُصَب، ليس لأن جلدي من حديد، بل لأنني أترفع عن معارك الصغار.
هدوئي كان دائماً رحمةً بهم وبنفسي.. لكن للصلابة حدود، وللصبر نهاية.

✨🪐

2. إعادة تموضع

كنتُ أظن أن حبال الوصل تُنسج بيد واحدة، فكنتُ أنا اليد التي تمد، تداوي، وتعتذر حتى وهي تنزف.
ظنوا أن صبري بئرٌ لا ينضب، وأن كرامتي ثوبٌ يُنسى في زاوية العتاب.
لكنني اليوم أعلنتُ الهدنة مع نفسي؛ لن أركض خلف راحل، ولن أعتذر عن ذنب لم تقترفه يدي. سأترك مكاناً فسيحاً لصمتي ليخبرهم أن الطيبين أيضاً يتعبون، وأن النور الذي في قلوبنا ليس مشاعاً لمن أراد إطفاءه.
هجرتُ عوالمهم، فما تركوني.. واعتزلتُ حكاياهم، فجعلوا مني حكاية! سعيتُ لرضاهم فأرهقوني، وإن أحسنتُ الظنَّ بهم خذلوني. إن بذلتُ المعروف شكّوا في مقصدي، وإن لُذتُ بالصمتِ والبعدِ.. بالكِبرِ وصموني..
ليس كل تراجع خذلاناً، بل هو أحياناً "إعادة تموضع" للروح.
أن أحترق لأضيء طريقاً لا يمشي فيه صاحبه بجدية.. هذا زمنٌ قد انتهى.

✨🪐

الفصل السادس: هالات التفاني...و قلب مضيء

1. أوسمة الحب الخفي

يقولون "هالات سوداء"، فأبتسمُ وأقول: "بل قل "راء".. ولا تبالِ".
في قاموس العابرين، هي مجرد شحوب، سهر، إرهاق، وقلة راحة.
لكن في قاموس "الأم" و"الوفية"، هي خريطةُ وفاء رُسمت تحت العيون.
هي بصمةُ تلك الليالي التي وقفتُ فيها حارسةً لأحلام صغاري، وسياجاً يحمي "عمود قلبي" من عواصف الأيام.
هذا السواد ليس قبيحاً؛ إنه الظل الذي تركه ضجيج الأفكار وهو يفتش عن مخرج، إنه "المحيرقة" التي انطفأت نارها لتتحول إلى رمادٍ يسكن جفوني، شاهداً على أنني لم أعش لنفسي يوماً، بل عشتُ بـ "التفاني" ولأجل "المسؤولية".
فلا تنظروا إلى ذبولي، بل انظروا إلى الأرواح التي أزهرت بفضل هذا السهر.

✨🪐

2.شاشة الجدار

في تلك الساعة التي يسكن فيها ضجيج الصغار، ويبدأ ضجيج عقلي، يتحول جدار غرفتي إلى شاشة عرض. تمر لقطات اليوم أمامي كفيلمٍ مصور، لستُ فيه بطلة خارقة، بل بطلة "متعبة" تتأرجح بين النقيضين.

أبتسمُ رغماً عني لشغبهم؛ لتلك البراءة التي تتخفى خلف الفوضى، ولضحكةٍ قفزت من بين الركام. لكن سرعان ما تطفر دمعةٌ حارقة، لا لسبب سوى كلمة جارحة مرت كالسهم، أو لعدم اعتبارٍ لجهدٍ بذلتُ فيه روحي قبل جسدي.

ثم يأتي "الندم القاتل".. ذاك الذي يجلدني بصوت صراخي الذي علا فوق براءتهم، وبقلة صبري التي خذلتني في لحظة ضيق. في تلك الخلوة، أعقدُ ميثاقاً مع نفسي، وعوداً قوية بالتغيير، وقسماً ألا أكرر أخطاء اليوم.

وببراءةٍ كاملة، أصدقُ وعودي.. حتى يقطع "بكاءُ أحدهم" حبل أفكاري، فأستفيق من صحوتي لأعود إلى الميدان، حاملةً خيبتي وأملي في آنٍ واحد.

✨🪐

الفصل السابع: مرايا الروح (عن الأخوة و الصداقة والرفقة الصالحة)

1. جغرافيا القلوب: بين المسافة والجوار

الصداقة الحقيقية لا تقاس بالكيلومترات، بل بـ "رنين الأرواح".

لديّ رفيقةٌ باعدت بيننا دروبُ الحياة، وفرقتنا المسافات و الظروف، لكننا حين نرفع سماعة الهاتف، أو يسوقنا الحنين للقاء، يتوقفُ الزمن فجأة؛ تعودُ الطفلةُ التي فينا، ونكملُ حديثنا وكأننا لم نفترق يوماً، وكأنّ صدى ضحكاتنا القديمة ما زال عالقاً في الهواء، ينتظرنا لنعود ونحييه.
هي مثالٌ للوفاء النادر، بقلبٍ أبيضَ لم تُكدره عوارض الطريق. قد يبدو ظاهرها للرائي مغلفاً بهدوءٍ بارد، أو وقارٍ صامت، لكنّ جوهرها يفيضُ حنيناً وتفهماً يقرؤ ما بين السطور؛ هي تلك التي تفعل الخير بصمت، وتزرع الجمال أينما حلّت دون ضجيج.
ولعلّ أصدقَ آياتِ وفائها، هو ذاك الحنوُّ الذي تغمرُ به أهلي في غيابي؛ إذ غدت لهم ابنةً بارّة، ترعاهم بودّها وكأنها قطعةٌ مني، لتثبت لي في كل مرة أن الصداقة الحقيقية ليست مجرد عشرة، بل هي أمانةٌ تُصان، ونسبٌ يسكن الروح

ولديّ أخرى، هي الجارةُ والروحُ والسند. جغرافيا هي قريبة، وروحياً هي أقربُ من نبض الوريد. هي الملاذُ الذي أبثُّ إليه أحزاني، والقلبُ الدافئ الذي يسمعُ "ضجيج عقلي" دون كلل. إنها المنيرة لعتمة أيامي بكلماتها، وتشجيعُها هو ذاك "النور" الذي يجعلني أواصلُ طريقي كأم وكإنسانة.

أما هي، توأمَ الروح. سنُّها صغير، لكنّ طموحها كان يسابق الغيم، فتاةٌ جُبلت على الاجتهاد، وتوّجها الجمالُ بحضوره الذي لم يخبُ يوماً، رغم كل شيء.
لكنّ الأقدارَ حين تعصف، لا تستأذنُ أحداً. مرّت بما يفتتُ صمَّ الجبال؛ زواجٌ مبكرٌ سرق براءة أحلامها، ثم فراقٌ مزلزلٌ هزّ أركان قلبها، فجعلها تلوذُ بالصمت، وتعتزلُ الحياة، وتختفي خلف جدران الاكتئاب والغياب.
يا رفيقةَ العمر، أنتِ ما زلتِ الجميلةَ بروحكِ، والقويةَ بصبركِ الذي لا يُقهر، لكنّ الانسحاب لم يكن يوماً هو الحل. الحلُّ يكمنُ في تلك اليد التي يجب أن تمتدّ نحو السماء من جديد؛ أن تعودي للّٰه مهما شعرتِ ببعد المسافة، أو ثقل الخذلان. لا تقنطي من روح اللّٰه، فهو "الخفيّ" الذي يعلمُ بوجعكِ أكثر من نفسكِ، وهو القريبُ الذي ينتظرُ انكسارك ليجبره بِلُطفه.

2. مصفاةُ الغياب: عذراً لمن لم يعذر

أما أولئك الذين لم يعذروا ثقل المسؤوليات، الذين اتهموني بـ "التغير" لمجرد أنني انشغلتُ ببناء "عالمي الصغير" واحتياجات "سكانه"... أقول لهم بسلام: "وداعاً".

لم تتغير روحي، بل تغيرتْ أولوياتي، ومن يحبك حقاً لا يطلبُ منك الاعتذار عن قيامكِ بواجبكِ المقدس.

شكراً للمواقف التي كشفت لي أن "الصحبة" ليست في كثرة الحضور، بل في "عمق الغياب" الذي لا يمحوه النسيان.

من لم يعذر "محيرقة" قلبي وتعب جسدي، لم يكن يستحق يوماً أن يسكن في محراب أسراري.

✨🪐

الفصل الثامن: العاصفة (عن سقوط الأقنعة وزيف العلاقات)

1.خلف كواليس الزيف

سئمتُ من رؤية كل شيء كامل لدرجة الزيف، ومن القراءة عن عالمٍ ملائكيّ لا يشبهنا.
لم يعد يروق لي رداء المثالية المزيّف؛ فنحن كلنا خُلقنا على نقص، ولو سعينا للكِمال المطلق لهلكنا وأهلكنا.
أريد أن أشاهد ما يحدث وراء الكواليس، أريد أن أرى الجهد والتعب.
أريد أن يحدثوني عن آلامهم، وبكائهم المستتر خلف ابتساماتهم.
أريد أن أسمع تلك الغصة العالقة في حلوقهم، المحرقة لقلوبهم، والمتوارية وراء أحاديثهم الشيقة التي تبدو خالية من الندوب..

✨🪐

2.بعد النضج: حين يتجلى الحطام

ففي غرس الطفولة، كانت عيوننا ترى الوجود من خلال عدسةٍ وردية، حيث كل شيءٍ مثالي، حقيقي، ومؤثر. كانت الصور ناصعة، والكلمات مواثيق لا تقبل النقض، والمشاعر نهراً يتدفق بالصدق.. لكننا حين كبرنا، أدركنا أن الثبات الوحيد هو في التأثير، أما الأقنعة فقد تهاوت؛ فبقي الأثر لكن وجهته تغيرت من الانبهار إلى العبرة.

لقد كنتُ أرقبُ في بعض الوجوه سيماء الوقار والهيبة، وأحسبُ تدينهم حصناً منيفاً، حتى زال "عمش"الصغر، وانجلت الرؤية، فإذا بذاك الوقار ليس إلا رداءً رثاً يُفصّل على مقاس الأهواء، يُلبس في حضرة الناس ويُخلع في خلوات الهوى. هنالك علمتُ أن الاستقامة الحقة هي أن يكون "هواي تبعاً لما جاء به الرسول"** ﷺ، لا تبعاً لمديح الخلق.

لقد صقلتني المواقف وأنا في ريعان الصبا، كبرتُ روحياً قبل الأوان، وتعلمتُ معاني الوفاء والحياء والثبات من أشخاصٍ كانوا هم أول من نقض غزلهم من بعد قوةٍ أنكاثاً! رأيتهم يفعلون عكس ما يعلمون و عكس ما علموني إياه، فاهتزت روحي ألما، وأدركتُ حينها أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، فانكسرتُ بين يديه هاتفة: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك".

أما عن سراب "التماسك الأسري"، فقد رأيتُ روابط ظننتها لا تفتصم، فإذا هي عند أول اختبارٍ للمال أو برحيل "الكبير"، تنكشف عن خيطٍ أوهن من خيط العنكبوت.

أما عن الصداقة، فكنتُ أحسبها ميثاقاً غليظاً وعهوداً لا تُنقض، فانفجعتُ بحقيقة أنَّ معظمها ليس إلا أضغاث أحلام أو سراباً يحسبه الظمآن ماءً.

لقد رأيتُ كيف تذوب تلك الروابط -في أغلبها- تحت شمس المسؤوليات، أو تتلاشى بمجرد زواجٍ أو فقرٍ أو تبدّل اهتمامات.
بل والأدهى من ذلك، أن تجد صلةً تنقطعُ لمجرد أنك اخترت الصلاح، فأصبح صمتُك عن الغيبة والنميمة "ثقيلاً" على أصحاب الهذيان.
هي قلةٌ نادرة تلك التي تبقى، أما البقية فليست إلا علاقات عابرة يُسميها الناس مجازاً "صداقة"، والحقيقة أنها تنتهي بمجرد أن تنتهي الغاية منها، أو بمجرد أن تختلف المسارات.

الفصل التاسع: مائدة النكران (عن عزة النفس في وجه التهميش)

1. غربةٌ بين الجدران:

أصعب أنواع الغربة هي تلك التي تعيشينها في بيتٍ قدمتِ فيه روحكِ على طبق، فقابلوا كرمكِ بالإخفاء، وتعبكِ بالنكران. حين يصبح 'القاطو' وسيلة لإلغاء حضورك، وصراخ الصمت هو ردكِ الوحيد على نظرات التهميش.. هنا تتعلمين أن 'الأثر' لا يُهدى لمن لا يراه، وأن الكرامة أغلى من لقمةٍ يُنتظر من الآخرين الإذن بتناولها..

✨🪐

2. سيدة الحضور لا "الخادمة":

سألوني عن 'شحوبي' ولم يبصروا الضياء في روحي.. أرادوا حصري في دور 'الخادمة' خلف فناجين القهوة، فكنتُ أنا 'سيدة الحضور' بجمالي وعزة نفسي.

كرمي لم يكن سذاجة، بل كان امتحاناً لمعادنهم.. سقطوا في اختبار 'حبة حلوى'، بينما كنتُ أنا أهبهم من وقتي وجهدي وروحي. غطّوا أطباقي ليخفوا أثري، فنسوا أن الضياء لا يحتاج لإذنٍ كي يسطع..

هم ينسجون الخفايا، وأنا أغزلُ الحكايا

لست 'برانية' بقدري، بل أنا ساميةٌ بأصلي و أثري، والقهوة التي صنعتها بيدي كانت طعماً للكرامة لا للخدمة و من يحاول إطفاء شمسي، لن يجني إلا الظلمة في عينه.

3. ***ترفع الجبال:***

ليس كل صمتٍ رضا، فبعض الصمت 'تجاوزٌ' لكي لا نلوث ألسنتنا بوحل عقولهم. ضحكتُ معهم ليس نفاقاً، بل لأن معدني لا يسمح لي بالنزول لمستوى صغائرهم. تركتُهم يظنون أنهم انتصروا بإخفاء حلوياتي، بينما الانتصار الحقيقي هو أنني بقيتُ 'أنا'.. بكرامتي، وبأصلي، وبقلبي الذي لا يعرف الغل، حتى وإن أوجعوني.

رسالة:

حين يعجزون عن الوصول لعلوّ شأنكِ، يحاولون إقناعكِ بأنكِ مريضة بالتحسس و التوهم . لا تصدقي زيفهم.. كوني الجبل الذي يرى السحب من فوق، ولا تلتفتي للرعد الذي في الأسفل..

خاتمة: هدوء ما بعد العاصفة

الآن، وقد سكنت الحروفُ على الورق، أشعرُ بأنّ ذاك الضجيج الذي كان يملأ رأسي قد تحول إلى سكينة. الكتابةُ لم تكن يوماً ترفاً، بل كانت "طوق نجاة" في بحرٍ متلاطمٍ من المسؤوليات والضغوط.

لقد أخرجتُ من قلبي "المحيرقة" و فجرتها على الورق، فصفتُ من تعبي خواطر، ومن هالاتي السوداء أوسمة وفاء. أعودُ الآن إلى أطفالي الثلاثة، وإلى بيتي، وإلى "عمود قلبي" بروحٍ أنقى وصدرٍ أرحب. لقد تعلمتُ أن الصمت ليس دائماً انكساراً، وأن التغابي ليس جهلاً، وأن كوني "أماً" لا يعني أن أدفن "الفنانة" التي بداخلي تحت غبار الرفوف.

سأستمرُّ في الرسم بالخيوط والألوان، وسأظلُّ أكتبُ كلما ضاقت الدنيا بالكلمات. "ضجيج العقل" قد صمتَ الآن، ليبدأ صوتُ الأمل.. صوتُ تلك المرأة التي عرفت كيف تُرمم نفسها باليقين، وكيف تجعل من تعبها "انتصاراً" كبيراً لروحها ولبيتها.

✨🪐

تمت.. بفضل الله، ثم بصدق النبض.

فهرس المحتوى: ضجيج العقل

المقدمة: فلسفة الصمت

عن "المحيرقة" المشتعلة، وضجيج العقل الذي لا يهدأ إلا على الورق.

الفصل الأول: في محراب اليقين

1.أَفِي اللّٰهِ شَك؟ (بين نداء الفطرة وندوب التقصير).

2.نور البصيرة والغربة: (عن صلاة الفجر، وبصيرة القلوب الساجدة).

الفصل الثاني: جذورُ الارتواء (المبتدأ والخبر)

1.السقيا الأولى: (عن أمي وأبي..)

2.مدرسة الصبر الصامت: (تضحيات الوالدين في وجه المحن والابتلاءات).

3. اعتراف بقلب ابنة: (اعتراف بالتقصير، وفخرٌ بالانتماء).

الفصل الثالث: نبضُ الدار (اعترافات أمّ صابرة)

1.لستُ "مجرد" ربة بيت: (عن عبادة الصبر بين الجدران).

2.نورٌ خلف الغبار: (صراع البناء الشري وفوضى المطبخ).

3.رسالة إلى "بقايا روحي": (اعتذار للأطفال، وفخرٌ بكونهم "الأمل").

✨***الفصل الرابع:*** ميثاق الوفاء (رسائل إلى عمود القلب)

1.الوجع والغياب: (عن الشوق، ومكانك الفارغ).

2. الداء والدواء.. رحلة السعي للتغيير

✨***الفصل الخامس***: وقفة عز (عن الكرامة والتغابي)

1.الذكي المتغابي: (فن الترفع عن معارك الصغار).

2.إعادة تموضع: (حين يتعب الطيبون، ويغلقون أبواب الحرق المجاني).

✨***الفصل السادس:*** هالات التفاني و قلب مضيء

1.أوسمة الحب الخفي: (حكاية الهالات السوداء تحت العيون).

2.شاشة الجدار: (محاكمة النفس بين بسمة الرضا ودمعة الندم).

✨***الفصل السابع:*** مرايا الروح (عن الصداقة والرفقة الصالحة و الأخوة طبعا)

1. جغرافيا القلوب: بين المسافة والجوار

2.مصفاةُ الغياب: عذرا لمن لم يعُد

🪄✨***الفصل الثامن:*** العاصفة(عن سقوط الأقنعة و زيف العلاقات)

1.خلف كواليس الزيف

2.بعد النضج:حين يتجلى الحطام

🪄✨***الفصل التاسع:*****مائدة النكران (عن عزة النفس والتهميش)**

1.غربةُ البيت والنكران: (حين يُقابل الكرم بالإخفاء، والتعب بالتجاهل)

2.سيدة الحضور لا "الخادمة": (عن شحوب الجسد وضياء الروح خلف فناجين القهوة).

3.ترفع الجبال: (الرد بالصمت على "وحل العقول"، والسمو فوق رعد القاع)

🪄✨***الخاتمة***: هدوء ما بعد العاصفة

إعلان السلام الداخلي، والعودة للميدان بروحٍ أنقى.

بين فكرة ترفض الرحيل،
وذكرى تأبى التلاشي،
وجدتُ نفسي غارقةً في ضجيج
لا يسمعه أحد غيري.
هذا الكتاب ليس مجرد
كلمات؛ إنه محاولة لترجمة
الصمت الذي سكنني طويلاً..
لعلّه يجد صدىً في
ضجيجك أنت أيضًا.